المحاضرة السابعة -7-

قبائل الجرمان وغزوهم لأراضي الإمبراطورية الرومانية

حرص الجرمان منذ وصولهم إلى حدود الإمبراطورية الرومانية على إقامة السلم بينهما طيلة مدة من الزمن إلى غاية القرن الثاني الميلادي، وذلك بسبب تعرضهم لضغوطات القبائل الآسيوية من الشرق وارتفاع أعدادهم بشكل ملحوظ مع تدهور أحوالهم الإقتصادية الأمر الذي جعلهم يفكرون في اجتياح أراضي الإمبراطورية.

لم تتوقف تهديدات القبائل الجرمانية رغم قيام بعضها بالتحالف مع الرومان في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161-180م)، حيث تقدم القوط في عهد الإمبراطور كاركلا (211-217م) وهاجموا إقليم داشيا بالبلقان وعاثوا فسادا فيه قرابة الخمسين سنة إلى أن هزمهم الإمبراطور كلوديوس الثاني (268-270م) سنة 269م.

تفطن الرومان لخطر القوط الذي باتوا يشكلونه على إمبراطوريتهم لذلك قاموا بتسليمهم إقليم داشيا وسحب الجيوش والموظفين الرومان منه على عهد الإمبراطور أورليان (270-275م)، وهو ما أدى لقيام أول مملكة جرمانية داخل الأراضي الرومانية.

لم يكن القوط وحدهم من يشكلون خطرا على الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة، ويظهر ذلك في قيام الفرنجة والسكسون والبافاريون بهجمات مختلفة حتى نهاية المرحلة الأولى من الهجرات الجرمانية سنة 300م، لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات السلمية بين الطرفين استمرت إلى غاية 375م، وهو تاريخ تجدد الهجمات على الإمبراطورية الرومانية، تمكن الجرمان من خلالها تأسيس ممالك عديدة داخل الإمبراطورية جاوزت القرنيين من الزمن (حتى سنة 576م).

وقبل التعريج على القبائل الجرمانية وجبت الإشارة إلى خطر محدق كان يهدد بقاءها والمتمثل في ما كان يعرف بقبائل الهون الآسيوية التي بدأت في الظهور على مسرح

الأحداث أواخر القرن الرابع الميلادي، حيث احتلت سواحل البحر الأسود وأثارت الرعب والفوضى في المنطقة، وكان أول اصطدام لهم مع قبيلة القوط الجرمانية التي عجزت عن صدهم في أوكرانيا سنة 375م، وهو ما أدى بباقي القبائل الجرمانية بالنزوح إلى الحدود الرومانية بشدة.

وبلغت قوة الهون إلى حد كبير بلغ بهم إلى أن هددوا مدينة القسطنطينية وفرضوا الجزية على الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (408–450م)، وفي سنة 451م زحفوا نحو غرب الإمبراطورية بقيادة زعيمهم أتيلا وهو ما دفع بالرومان إلى التحالف مع القوط الغربيين وتحقيقهم لانتصار كبير على الهون في معركة شالون التي يعتبرها المؤرخون من أهم معارك العصور الوسطى.

توجه أتيلا بعد معركة شالون إلى إيطاليا لمهاجمة روما، إلا أن البابا ليو الأول (440–461م) خرج إليه وأقنعه بالإنصراف عنها، فعاد إلى مقر حكمه بهنغاريا (المجر) أين مات سنة 453م، مخلفا صراعا كبيرا بين أبنائه على الحكم، وهو ما كان في صالح القبائل الجرمانية التي انتفضت عليهم، لتنتهي بذلك دولتهم التي كادت أن تعصف بهم جميعا.

القبائل الجرمانية:

1/ القوط: انقسم القوط إلى قسمين، غربيون وشرقيون:

أ/ القوط الغربيون: استقروا في بداية هجراتهم بمنطقة البلقان واعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسي، غير أن تحرشات الهون بهم جعلت من الإمبراطور الروماني فالنز (364–378) يسمح لهم بعبور نهر الدانوب سنة 376م، إلا أنهم ثاروا عليه وقتلوه سنة 378م في موقعة أدرنة، الأمر الذي جعل خليفته ثيودوسيوس يلجأ إلى مهادنتهم وعقد صلح معهم، وهذا دليل على فرض وجودهم داخل أراضي الإمبراطورية.

وبوصول آلاريك إلى حكم القوط الغربيين ثاروا على الإمبراطورية، حيث قاموا بنهب بلاد اليونان وتقدموا إلى القسطنطينية بهدف إسقاطها في أيديهم، غير أن القائد ستيلكو تمكن من هزيمتهم، وهو ما حملهم على التوجه نحو روما غربا سنة 402م بغرض غزوها، ليهزموا مرة أخرى على يد ستيلكو الذي أبعدهم عنها لفترة من الزمن.

لم يفشل القوط الغربيون أمام قوة الروم، وهو ما نقف عليه من محاولة آلاريك غزو روما سنة 410م حيث نجح في دخولها ونهبها، غير أن موته المفاجئ جعل الرومان يدخلون مع القوط في مفاوضات بهدف خروجهم من إيطاليا مقابل منحهم إقليم أكوتين بين اللوار والبرانس، الأمر الذي أدى إلى استقرارهم به وتمكنوا من التوسع نحو إسبانيان غير أن نفوذهم انحصر بعد قيام مملكة الفرنجة، وظلت مملكتهم قائمة إلى غاية الفتح الإسلامي عام 711م.

ب/ القوط الشرقيون: واجه القوط الشرقيون منذ النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي خطر الهون الذين منعوهم من عبور نهر الدانوب وسيطروا عليهم مدة سبعين سنة، غير أنه بوفاة أتيلا سنة 453م تمكنوا من التحرر من سيطرة الهون وتوجهوا صوب القسطنطينية بهدف إسقاطها إلا أنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة على يد الجيش البيزنطي سنة 461م وأسر ثيودريك أحد أبناء أمرائهم، فمكث بالقسطنطينية إلى أن تمكن من الفرار سنة 474م.

تنقل الأمير ثيودريك بالقوط الشرقيين في إقليم البلقان فترة من الزمن إلى أن شجعه الإمبراطور رينون (474-491م) على غزو إيطاليا وهدفه من وراء ذلك إبعاد القوط الشرقيين عن عاصمته من جهة وإدخالهم في صراع مع القائد البربري أودواكر الذي كان يحكم إيطاليا من جهة أخرى.

تحرك القوط الشرقيون صوب روما في خريف 488م، حيث تمكنوا خلال خمس سنوات من القضاء على أودواكر وإخضاع إيطاليا ووصلوا إلى صيقلية، واعترف البيزنطيون

بثيودريك حاكما على إيطاليا، متخذا من مدينة رافنا عاصمة لحكمه، متبعا النظم والأساليب الرومانية في تسيير شؤون مملكته.

غير أن اضطراب أوضاع مملكته بعد وفاته سنة526م بسبب الصراع على السلطة بوجه خاص، جعلت من الإمبراطور جستنيان (527-565م) يوجه عدة حملات عسكرية لاستعادة إيطاليا استمرت إلى غاية سنة 533م، أين تمكن القائد نارسيس من احتلال العاصمة رافنا وتشتيت القوط الشرقيين.

2/ الوندال: ينتمي الوندال إلى قبائل الجرمان الشرقيون، نزحوا من موطنهم الأصلي في القرن الأول ميلادي إلى مناطق سيليزيا (بولندا، التشيك، ألمانيا) وبوهيميا (التشيك)، وفي نهاية القرن الرابع الميلادي فروا مع قبائل الآلان (إيرانية) من زحف الهون عابرين نهر الدانوب ومن بعده نهر الراين، مستغلين انشغال الإمبراطورية الرومانية بخطر القوط حتى وصلوا سنة 406م إلى بلاد الغال وعاثوا فيها فسادا، ثم عبروا إلى إسبانيا بهدف ضمها إلى حكمهم إلا أن قوة القوط الغربيين دفعتهم جنوبا ليعبروا بعد ذلك إلى شمال إفريقيا بزعامة قائدهم جزريك، مستغلين حالة الضعف التي كانت تشهدها المنطقة.

إحتل الوندال مدن شمال إفريقيا الواحدة تلوى الأخرى، حيث سقطت أشهر مدنها قرطاجة سنة 439م، واتبعوا سياسة دينية متطرفة بأمر من الملك جزريك (428-477م) الذي صادر أملاك أتباع الكنيسة الكاثوليكية، محاولا بذلك فرض المذهب الآريوسي.

شكل الوندال في شمال إفريقيا قوة بحرية مكنتهم من الإغارة على عدد من الجزر كصيقلية وسردينيا وكورسيكا، وفي سنة 455م هاجموا مدينة روما واستباحوها مدة أسبوعين.

غير أن قوتهم تراجعت بعد وفاة جزريك لعدة أسباب منها الخلاف بين ورثته على الحكم وتعاملهم بقسوة ومبالغتهم في تحصيل الضرائب، زيادة على تطرفهم المذهبي ضد الكاثوليك

المسيحيين وانشغال المقاتلين الوندال بحياة الترف وتوسيع الأملاك، وهو ما أدى إلى سقوط دولتهم على يد القائد البيزنطي بلزاريوس سنة 534م.

3/ البرجنديون: هم من الجرمان الشرقيين وصلوا إلى الراين في القرن الرابع الميلادي، اضطرهم الهون إلى العبور إلى أراضي الإمبراطورية كمعاهدين لها، معتنقين المسيحية على المذهب الآريوسي.

استقروا في المنطقة التي منحها لهم القائد الروماني إيتيوس سنة433م قرب واد الرون في الجهة الجنوبية الشرقية لغاليا والتي أصبحت تعرف فيما بعد باسم برجنديا.

ويعتبر البرجنديون من أكثر الشعوب الجرمانية مسالمة، لذلك اختلطوا بالرومان في غاليا وصاهروهم ولم يتعصبوا لمذهبهم الآريوسي، فسمحوا لفتياتهم باعتناق المذهب الكاثوليكي، وهو ما جعل الملك الفرنجي كلوفيس يتزوج بالأميرة البرجندية كلوتيلد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي وتمكنت من إقناع زوجها وقومه باعتناقه.

4/ الفرنجة: انقسم الفرنجة بدورهم إلى قسمين وهما الفرنجة البحريون والفرنجة البريون، استقروا في بداية أمرهم قرب نهر الراين ثم توجهوا جنوبا إلى بلاد الغال متخذين من مدينة تور عصمة لهمن ليشاركوا سنة 451م في معركة شالون إلى جانب الرومان، ووسعوا بعدها من حدود مملكتهم حتى بلغت نهر اللوار.

يعتبر الملك كلوفيس (481-511م) المؤسس الحقيقي لمملكة الفرنجة خصوصا بعد انتصاره على الحاكم الروماني سياغروس آخر بقايا النفوذ الروماني بسواسون، كما هزم آلاريك زعيم القوط الغربيين سنة 507م منهيا بذلك حكمهم في بلاد الغال، وقام بتنظيمات مازج فيها بين الأصول الجرمانية وعناصر الحياة الرومانية، الأمر الذي مكنه من خلق كيان سياسي موحد اجتماعيا ودينيا.

غير أن أهم ما قام به كلوفيس هو اعتناقه للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، وهو ما جعله يحظى بمكانة رفيعة لدى الكنيسة بروما التي رأت فيه القوة الوحيدة التي يمكنها حماية العالم لروماني من خطر الجرمان الآريوسيين.

لم تدم الوحدة السياسية للمملكة الميروفنجية بعد وفاة كلوفيس وذلك بسبب الضعف والنزاعات السياسية التي استمرت إلى غاية انتهاء الأسرة الميروفنجية منتصف القرن الثامن ميلادي.

5/ الإنجليز والسكسون: تنتمي القبائل الأنجلو سكسونية إلى سلالات التيوتون المقيمة بشواطئ بحر الشمال، يعود ظهورهم كقوة على مسرح الأحداث عندما أغاروا على بريطانيا بعد انسحاب القوات الرومانية منها سنة 422م لحماية روما من التوسعات الجرمانية، حيث قاموا بتأسيس سبع ممالك (كنت، أسكس، سسكس، سكس، إنجيليا الشرقية، مرسيا، نورثمبرلاند)، قام ملك كنت إثلبرث بتوحيدها تحت رايته بعد جهود عسكرية ودبلوماسية، واتخذ خطوة هامة باعتناقه المسيحية سنة 597م على يد القديس أوغسطين الذي أرسله البابا جريجوري العظيم (590-604م) لنشر المسيحية ببريطانيا.

غير أن مملكة وسكس أخذت الصدارة بين الممالك السبعة في عصر ملكها آجبرت (802-839م) وظلت محافظة على وحدتها إلى غاية تعرضها لهجمات الفايكنغ نهاية القرن التاسع ميلادي.